الفصل السادس

عقولنا والعقول الأخرى

ما إن يتعلم الطفل معنى «لماذا» و «بسبب» حتى يصبح عضوا
فى الجنس البشرى يؤدى كل ما عليه أدائه .

إيلين مورجان ، «أصل الطفل :
التطور البشرى من منظور جديد»

وعينا نحن ، عقولهم هم :

سيبدو لنا العقل أقل إعجازاً عندما يعرف المرء كيف يمكن أن يكون قد صُنع من أجزاء تُضم معا ، وكيف أنه ما زال يعتمد على تلك الأجزاء . وأول كل شىء، فإن وجود عقل عارى – دون ورقة وقلم ، ودون كلام ، أو مقارنة للنبرات ، أو رسم لرسومات تخطيطية – وجود مثل هذا العقل أمر لم نره أبداً . وكل عقل بشرى تنظر إليه – بما فى ذلك عقلك أنت على وجه خاص الذى تنظر إليه «من الداخل» – هو نتاج ، ليس للانتخاب الطبيعى فحسب وإنما أيضاً نتاج لإعادة تصميمه ثقافيا فى نسبة هائلة منه . ومن السهل بما يكفى أن نعرف لماذا يبدو العقل معجزاً ، وذلك عندما لا يدرك المرء كل مكوناته وكيف تم صنعها . وكل مكون من هذه له تاريخ طويل من التصميم ، يمتد أحياناً لبلايين السنين .

قبل أن يتمكن أى كائن من التفكير ، كان هناك كائنات ذات قصدانية فجة بلا تفكير – مجرد أجهزة تقوم بمتابعة المسار والتمييز بدون أن يكون لها أدنى فكرة عما تقوم بفعله أو سببه . ولكنها كانت ناجحة فى عملها . فهذه الأجهزة كانت تتابع مسار الأشياء ، وتستجيب استجابة يعتمد عليها بالنسبة لانثناءاتها وانعطافاتها ، محافظة على متابعة هدفها معظم الوقت ، ونادراً ما تشرد طويلاً قبل أن تعود لمهمتها. ومع مرور فترات زمنية أطول كثيراً حدث «لتصميمات» هذه الأجهزة ما يمكن أن نقول عنه أنه أيضاً متابعة لشىء ما : ليس هو من يراوغ من الأليف أو الفريسة ، وإنما متابعة شىء ما تجريدى – الأسس المنطقية التلقائية لوظائف هذه الأجهزة نفسها . فمع تغير الظروف تغيرت تصميمات هذه الأجهزة فى استجابة ملائمة للظروف الجديدة ، بحيث تبقى أصحابها مجهزين تجهيزاً جيداً بدون أن تثقل عليهم بالأسباب . وهذه الكائنات تصطاد ، ولكنها لا تفكر فى أنها تصطاد ، وهى تنطلق هاربة ، ولكنها لا تفكر فى أنها تهرب . إن لديها «سر الصنعة» التى تحتاجها. وسر الصنعة هذا نوع من الحكمة ، نوع من المعلومات المفيدة ، ولكنه ليس معرفة متمثلة .

ثم بدأت بعض الكائنات تصقل ذلك الجزء من البيئة الأسهل من حيث التحكم

فيه ، وتضع له العلامات فى الداخل والخارج معا – مفرغة شحنة المشكلات إلى العالم ، وإلى أجزاء أخرى لا غير من أمخاخها . وتبدأ هذه الكائنات فى صنع واستخدام التمثلات ، ولكنها لا تعرف أنها تفعل ذلك . وهى ليست فى حاجة لأن تعرف . هل ينبغى أن نسمى استخدام التمثلات هكذا بلا وعى بأنه «تفكير» ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فإنه سيكون علينا أن نقول أن هذه الكائنات تفكر ولكنها لا تعرف أنها تفكر ! تفكير بلا وعى – وقد يجد من لديهم تذوق للصياغات «ذات المفارقة» أن هناك ما يحبذونه فى هذه الطريقة للكلام ، ولكننا يمكننا على نحو أقل تضليلا أن نقول أن هذا السلوك «ذكى ولكنه بلا تفكير» ، لأنه ليس فحسب غير تأملى وإنما أيضاً لا يقبل التأمل .

إننا نحن البشر نفعل أشياء كثيرة ذكية بلا تفكير . فنحن بلا تفكير ننظف أسناننا بالفرشاة ، ونربط أحذيتنا ، ونسوق سياراتنا ، بل وحتى نجيب عن أسئلة بلا تفكير . ولكن معظم هذه الأنشطة التى نقوم بها أمرها مختلف ، ذلك أننا «نستطيع» أن نفكر فيها بطرائق لا تستطيع الكائنات الأخرى أن تفكر بها فيما يتعلق بأنشطتها اللاتفكيرية وإن كانت ذكية . والحقيقة أن الكثير من أنشطتنا اللاتفكيرية ، مثل قيادة السيارة ، لا يمكن أن تصبح لا تفكيرية إلا بعد المرور من خلال فترة طويلة من إنماء لتصميم من الواضح أن له وعى ذاتى . كيف يتم إنجاز ذلك ؟ إن التحسينات التى تضعها فى أمخاخنا عندما نتعلم لغتنا تتيح لنا أن نستعرض أنشطتنا الخاصة بنا ونتذكرها ونعيد التدرب عليها ونعيد تصميمها ، محولين أمخاخنا إلى حجرات صدى بدائية ، حيث يمكن لعمليات ، ستكون زائلة بدون هذه الحجرات ، أن تظل باقية هناك وتصبح موضوعات بحد ذاتها . ونحن نسمى العمليات التى تبقى لأطول زمن أطول ، مكتسبة نفوذاً مؤثراً ببقائها ، بأنها أفكار وعينا .

ومحتويات العقل تصبح وعيا ، ليس بإدخالها فى بعض حجرة خاصة فى المخ ، وليس بتحويل طاقتها إلى بعض وسيط غامض له امتيازه ، وإنما تصبح وعيا بأن تكسب مباريات تنافس ضد محتويات عقلية أخرى من أجل السيادة على التحكم فى السلوك ، وبالتالى من أجل التوصل لتأثيرات تبقى زمناً طويلاً – أو كما نقول على نحو مضلل ، أنها «تدخل فى الذاكرة» . ولما كنا متحدثين ، ولما كان تحدثنا إلى أنفسنا هو واحد من أكثر أنشطتنا نفوذاً مؤثراً ، فإن من أكثر السبل الفعالة لأن يصبح لأحد المحتويات العقلية تأثيره النافذ ، أن يصل هذا المحتوى إلى وضع يمكّنه من قيادة أجزاء أجهزة التحكم التى تستخدم اللغة .

أحد ردود الفعل الشائعة لهذا الطرح بشأن الوعى البشرى هو الإصابة بذهول واضح ، يُعبَّر عنه تقريبا كالتالى : «هب أن كل هذه العمليات التنافسية الغريبة» تظل

تدور باستمرار فى مخى ، وهب أن عمليات الوعى كما تقول هى فحسب تلك التى تربح المنافسة ، كيف يؤدى «ذلك» إلى أن يجعلها وعيا ؟ ماذا يحدث لها بعد ذلك بحيث يجعل من الحقيقى أن أكون «أنا على معرفة بشانها ، فمع كل شيء ، فإن هذا الوعى (يخصنى) ، كما أعرف بذلك من وجهة نظر ضمير المتكلم الأول ، إن هذا يتطلب تفسيراً !»على أن هذه الأسئلة تكشف عن بلبلة عميقة ، لأنها تفترض مسبقاً أن ما تكونه «أنت» هو شيء ما «آخر» ، بعض من «الشيء المفكر» الديكارتى بالإضافة إلى كل هذا النشاط البدنى والعقلى . على أن ما هو أنت «يكون» فحسب هذا التنظيم لكل نشاط التنافس بين حشد من القدرات التى ، أنشأها جسدك . وأنت «أوتوماتيكيا» على معرفة بهذه الأمور التى تدور فى جسدك ، لأنك إن لم تكن تعرفها فإن هذا ليس جسدك ! (فى إمكانك أن تمشى مبتعداً وأنت ترتدى قفازات شخص آخر ، تظن خطأ أنها قفازاتك ، ولكنك لايمكنك أن توقع عقدا مستخدما يد شخص آخر ، تظن خطأ أنها يدك ، ولا يمكنك أن يتملكك حزن شخص آخر أو مخاوفه وأنت تظن خطأ أنه ما يخصك أنت من خزن أو مخاوف) .

هذا والأفعال والأحداث التى يمكن أن تحدثنا عنها هى وأسبابها ، إنما تنتمى لك أنت لأنك قد صنعتها – ولأنها تصنعك . وما تكونه أنت هو ذلك العامل الفعال الذى يمكنك أن تتحدث عن حياته . فأنت يمكنك أن تحدثنا عن ذلك ويمكنك أيضا أن تحدث نفسك عن ذلك . وعملية توصيف الذات تبدأ فى الطفولة المبكرة وتتضمن من البداية قدراً كبيراً من الخيال . (ولنفكر فى أمر الكلب سنوبى (المتطفل) فى كارتون «الفول السودانى» ، وهو جالس فى وجاره يفكر ، «هاكم أنا بطل فى الحرب العالمية الأولى ، وأطير مقاتلاً») ويستمر ذلك طول الحياة . (ولنفكر فى نادل القهوة فى نقاش جان بول سارتر عن «الإيمان السيء» فى كتابه «الوجود والعدم» والنادل مستغرق تماماً فى أن يتعلم كيف يصل إلى أن يحيا كنادل وفقا لتوصيفه الذاتى لذلك) . فالأمر هو ما نفعله «نحن» ، والأمر هو ما نكونه «نحن» .

هل العقول الأخرى تختلف حقا جد الاختلاف عن العقول البشرية ؟ كتجربة بسيطة ، أود لو أنك تتخيل شيئا أجرؤ على القول بأنك لم تتخيله قط من قبل . فأرجو منك أن تتخيل بشيء من التفصيل رجلا فى معطف أبيض من معاطف المعامل يتسلق حبلا صاعدا بيديه الواحدة بعد الأخرى بينما يمسك بين أسنانه دلوا بلاستيكيا أحمر . هذه مهمة عقلية سهلة بالنسبة لك . هل يمكن لقرد شمبانزى أن يؤدى نفس هذه المهمة العقلية ؟ إنى لأتساءل . لقد اخترت العناصر – إنسان وحبل ، ودلو للتسلق ، وأسنان . وكلها أشياء مألوفة فى العالم الإدراكى والسلوكى لقرد شمبانزى من قرود المعمل . وأنا واثق أن هذا الشمبانزى يستطيع ليس فحسب

إدراك هذه الأشياء بل إنه أيضاً يراها «على أنها إنسان وحبل ودلو ، وهلم جرا . وبالتالى فأنا ، بمعنى ما من أدنى حد ، أضمن أن الشمبانزى لديه «مفهوم» عن الإنسان والحبل والدلو «ولكنه فيما يفترض ليس لديه مفاهيم عن سرطان الماء أو قصيدة الخماسيات الفكاهية أو المحامى) . وسؤالى هو ما الذى يستطيع قرد الشمبانزى أن يفعله بمفاهيمه ؟ إذا عدنا وراء إلى الحرب العالمية الأولى سنجد أن عالم السيكولوجيا الألمانى ولفجانج كوهلر قد أجرى بعض تجارب مشهورة على قرود الشمبانزى ليرى نوع المشاكل التى يمكن لها أن تحلها بالتفكير : هل يستطيع الشمبانزى أن يستنتج كيف يكوّم بعض الصناديق فى قفصه ليصل إلى بعض ثمار الموز المعلقة من السقف بحيث تكون أعلى من أن يصل إليها الشمبانزى ؟ أو بدلا من ذلك ، هل يستطيع الشمبانزى أن يستنتج كيف يربط عصاتين معا ليصبحا عصاة واحدة طويلة طولاً كافياً لإسقاط هذا الطعام ؟ حسب الاعتقاد الشائع ، فإن قرود الشمبانزى بتجربة كوهلر أمكنها حقا أن تستنتج هذه الحلول ، أما الحقيقة فهى أن ما فعلته هذا الحيوانات كان أمراً غير مثير بالمرة ؛ فبعضها لم يحل المشكلة إلا بعد محاولات كثيرة وكثيرة ، والبعض الآخر لم ير ضوء الحل قط . وقد أجريت بعد ذلك دراسات ، من بينها بعض ما أجرى حاليا ، وهى دراسات أكثر حذقا بكثير، وما زالت هذه الدراسات لا تنجح فى حسم هذه الأسئلة ، التى تبدو بسيطة ظاهريا ، بالنسبة لما يمكن أن يفكر فيه الشمبانزى عند تزويده بكل مفاتيح اللغز . ولكن دعنا نفترض مؤقتا أن تجارب كوهلر قد أجابت بالفعل عن السؤال الذى يشتهر فيما هو شائع أنها قد أجابت عنه : أى أن الشمبانزى يستطيع حقا اكتشاف الحل لمشكلة بسيطة من هذا النوع ، بشرط أن تكون عناصر الحل كلها مرئية وفى متناول اليد – أى متاحة لتناوله فى محاولة التجربه والخطأ .

سيكون سؤالى الآن مختلفا : هل يستطيع الشمبانزى أن «يستدعى لعقله» عناصر أحد الحلول إذا كانت هذه العناصر غير موجودة لتمد الشمبانزى بما هو مرئى من عناصر تذكره بها هى نفسها ؟ أن الاختبار الذى أجريته أنت قد أثاره اقتراح كلامى منى . وأنا واثق من أنك يمكنك بمثل هذه السهولة تماما أن تطرح اقتراحات لنفسك ، ثم تأخذ بعدها هذه الاقتراحات الخاصة بك ، لتصيغ بتلك الطريقة تخيلاً عقلياً مبتكراً إلى حد له اعتباره . (هذا واحد من الأمور التى نعرفها «نحن» عن أنفسنا – وهو أننا جميعا نستمتع بالانشغال بتدريبات بارعة من التصور قد فصّلت بعناية لتفى باهتماماتنا لحظتها.) والوصف الذى رسمت خطوطه فى الفصول السابقة عن طريقة عمل العقول غير البشرية ، يدل على أن الشمبانزى ينبغى أن يكون عاجزاً عن أداء هذه الأنشطة . وقد يحدث على نحو ما أن قردة

الشمبانزى تجمع معا بالصدفة المفاهيم المتعلقة بالأمر (مفاهيم من نوع ينتمى لهم)، ثم يجذب انتباههم إلى نتائج تكون لها بالصدفة أهميتها ، ولكن حتى هذا الأمر أظنه يفوق حدود ما لمواردهم من قابلية للحركة أو التناول .

هذه الأسئلة عن عقول الشمبانزى هى أسئلة بسيطة نوعاً ، ولكن أحداً لا يعرف الإجابة عنها – بعد . والإجابات ليست مما يستحيل الحصول عليه ، ولكن ابتكار التجارب المناسبة ليس أمرا سهلا . ولنلاحظ أن هذه الأسئلة ليست من النوع الذى يمكن توجيهه حسب النظر إلى الحجم النسبى لمخ الحيوان ، أو حتى حسب قياس قدرته الإدراكية البهيمية (بالنسبة للذاكرة وقدرته التمييزية) . ولاشك أن مخ الشمبانزى فيه ما يكفى من الماكينات لاختزان كل المعلومات المطلوبة كمادة خام لهذه المهمة ؛ والسؤال هو ما إذا كانت هذه الماكينات منظمة بحيث تتيح هذا النوع من استغلالها . (لديك بيت طيور كبير فيه وفرة من الطيور ؛ هل تستطيع أن تجعلها تطير فى تشكيل ؟) إن ما يجعل العقل قويا – وفى الحقيقة ، ما يجعل العقل واعياً – ليس ما صنع منه العقل ، وليس مقدار كبره ، وإنما ما يستطيع هذا العقل أن يفعله .هل يستطيع أن يركز ؟ هل يمكن إلهاء انتباهه ؟ هل يمكنه تذكر أحداثا سابقة ؟ هل يستطيع الإستمرار فى متابعة أشياء عديدة مختلفة فى نفس الوقت ؟ أىّ المعالم من أنشطته الحالية الخاصة به يستطيع أن يلحظها أو أن يتابعها ؟

عندما تتم الإجابة عن أسئلة كهذه ، سوف نعرف كل شىء نحتاج لمعرفته بشأن تلك العقول حتى نجيب عن الأسئلة المهمة أخلاقيا . وهذه الإجابات سوف تأسر لنا كل شىء نريد معرفته عن مفهوم الوعى ، وذلك «فيما عدا» فكرة فيها تساؤل ذكره مؤخرا أحد الكتاب ، تساؤل عما إذا كانت «أنوار العقل يوقف تشغيلها» فى مثل هذا الكائن . على أن هذه فحسب فكرة سيئة – وإن كانت شائعة. وليس الأمر أنها فحسب فكرة لم يتم قط تحديدها أو حتى توضحيها بواسطة أى من أنصارها ، بل إن الأمر أيضا أنه ليس هناك ما يمكن أن يفعله توضيح أو تحديد كهذا . ذلك أننا لو افترضنا أننا قد أجبنا حقا عن كل الأسئلة الأخرى عن عقل كائن ما ، ثم أدعى بعض الفلاسفة أننا ما زلنا لانعرف الإجابة عن ذلك السؤال البالغ الأهمية ، هل ضوء العقل شغال – نعم أم لا ؟ لماذا تكون أى من الإجابتين مهمة؟ إن علينا الإجابة عن «هذا» السؤال قبل أن يصبح من اللازم لنا أن نأخذ سؤال هؤلاء الفلاسفة مأخذاً جديًا .

هل لدى الكلب مفهوم «للقط» ؟ نعم «و» لا . فمهما كان مفهوم الكلب عن القط قريباً من مفهومك من حيث امتداداته (أنت والكلب تميزان نفس المجموعة من الكيانات كقطط أو لا قطط) ، فإنه يختلف جذرياً عن مفهومك

بطريقة واحدة : فالكلب لا يستطيع أن يتفكر فى مفهومه . فهو لا يستطيع أن يسأل نفسه عما إذا كانت تعرف ما تكونه القطط ؛ ولا يستطيع أن يتساءل عما إذا كانت القطط حيوانات ؛ ولا يستطيع أن يحاول تمييز جوهر القط (بواسطة ما لديه من أضواء) عن مجرد أحداث بالصدفة . فالمفاهيم ليست أشياء فى عالم الكلب بالطريقة التى تكون بها القطط كذلك . والمفاهيم «تكون» أشياء فى عالمنا لأننا لدينا لغة. تكون للدب القطبى كفاءته فى مواجهة الثلج بطرائق كثيرة ، بخلاف مايكون عليه الأسد ، وبالتالى فإنه بأحد المعانى يكون لدى الدب القطبى مفهوم يفتقده الأسد – مفهوم الثلج . ولكن لا يوجد حيوان ثديى بلا لغة يمكنه أن يكون لديه مفهوم الثلج بالطريقة التى يمكننا بها ذلك ، لأن الحيوان الثديى الذى لا لغة له ليس لديه طريقة للتفكير فى الثلج «بصفة عامة»أو «فى حد ذاته» . ولا يرجع ذلك للسبب التافه من أنه ليس لديه «كلمة» (من لغة طبيعية) عن الثلج ، وإنما يرجع إلى أنه بدون لغة طبيعية لا يكون لهذا الثديى أى موهبة لانتزاع المفاهيم من أوكارها الترابطية المتشابكة ، ليتعامل معها . فى إمكاننا أن نتحدث عن معرفة الدب العملياتية أو معرفته الضمنية بالثلج (سر الصنعة فى معرفة الدب القطبى بالثلج) ، بل ويمكننا أن نجرى بحثا أمبريقيا عن مدى امتداد مفهوم الثلج المطمور لدى الدب القطبى ، ولكن علينا أن نبقى فى ذهننا أن هذا ليس مفهوما طيّعا لاستخدام الدب القطبى .

ثم يقال «إنه ربما لا يستطيع الكلام ، ولكنه بلاشك يفكر!» – إن أحد الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب هو أى يهز ثقتك فى رد الفعل المألوف هذا . ولعل أكبر عقبة فى محاولاتنا استيضاح أمر القدرات العقلية للحيوانات غير البشرية هى عادة لنا لا نكاد نستطيع مقاومتها ، فقد تعودنا أن نتصور أن هذه الحيوانات تصاحب انشطتها البارعة بتيار من الوعى التأملى وكأنه «شىء ما» يشبه مالدينا . وليس الأمر أننا الآن «نعرف» أنها لا تفعل أى شىء من هذا القبيل ؛ والأحرى أننا ونحن فى هذ الأيام المبكرة من أبحاثنا يجب أن «نفترض» أنها تفعل ذلك . إن التفكير الفلسفى والعلمى فى هذه القضية كلاهما قد تأثر تأثيراً شديداً بورقة البحث الكلاسيكية التى كتبها الفيلسوف توماس ناجل فى ١٩٧٤ ، «كيف يبدو الأمر لو كنت خفاشا؟» . والعنوان نفسه يضعنا فى الطريق الخطأ ، داعيا إيانا إلى أن نتجاهل كل الطرائق المختلفة التى يمكن بها للخفافيش (والحيوانات الأخرى) إنجاز روائعها الماكرة بدون أن «يبدو الأمر» كأى شىء بالنسبة لهم . فنحن نخلق لأنفسنا لغزاً مفترضا لا يمكن حله لو زعمنا بدون أى ضجيج آخر أن سؤال ناجل له معنى وأننا نعرف ما الذى نسأله .

كيف يبدو الأمر لطير عندما يبنى عشا ؟ إن هذا السؤال يدعوك لأن تتصور

الطريقة التى سوف تبنى بها عشا ثم تحاول أن تتصور تفاصيل المقارنة . ولكن بما أن بناء عش ليس شيئا قد اعتدت أن تصنعه ، فإنه ينبغى أولا أن تذكّر نفسك كيف يبدو الأمر لك عندما تصنع شيئاً مألوفاً . حسن ، كيف يبدو الأمر لك عندما تربط أربطه حذاءك ؟ إنك أحيانا تنتبه للأمر ؛ وأحيانًا يتم ذلك بواسطة أصابعك دون أن تلحظه مطلقا ، وأنت تفكر فى أمور أخرى . وبالتالى فإنك قد تفكر فى أن الطير ربما يكون مستغرقا فى أحلام يقظة أو يرسم خطة نشاطات الغد أثناء تنفيذه لحركاته فى إنشاء العش . لعل الأمر كذلك ، ولكن البراهين فى الحقيقة حتى يومنا هذا تطرح بقوة أن الطير ليس مجهزاً لأن يفعل أى شيء من هذا . بل إن التباين الذى تلحظه بين حالك وأنت منتبه وحالك وأنت تقوم بالمهمة بينما عقلك مشغول بأمر آخر ، هذا التباين يحتمل الا يوجد مطلقاً ما يقابله فى حالة الطائر . وحقيقة أنك «أنت» لاتستطيع أن تبنى عشاً بدون أن تفكر بعناية وبتأمل بشأن ما تفعله وبشأن سببه، هذه الحقيقة ليست مطلقا سببا قويا لأن نفترض أن الطير عندما يبنى عشا ، لابد وأن يفكر أفكاره الطيرية بشأن ما يفعله (على الأقل بالنسبة لأول عش له ، قبل أن يتفن أداء المهمة) وكلما زاد ما نتعلمه بشأن الطريقة التى تستطيع بها الأمخاخ أن تنشغل فى عمليات تؤدى إلى إنجاز أفعال بارعة لأصحابها من غير البشر ، قلّت مشابهة هذه العمليات بالأفكار التى تصوّرنا على نحو غائم أنها تقوم بالمهمة . وهذا لا يعنى أن أفكارنا «نحن» ليست عمليات تحدث فى أمخاخنا ، أو أن أفكارنا لا تلعب الأدوار الحاسمة فى التحكم فى سلوكنا ، تلك الأدوار التى نفترض طبيعيا أنها تلعبها . وفيما يفترض فإن بعض العمليات التى تجرى فى أمخاخنا البشرية ستصبح فى النهاية قابلة للإدراك على أنها الأفكار التى نعرفها على نحو جد حميم ، ولكن سيظل مما ننتظر معرفته ، ما إذا كانت «القدرات» العقلية لأى أنواع أخرى تعتمد على امتلاكها «لحياة» عقلية بالطريقة التى نفعل بها نحن ذلك .

الألم والمعاناة : ما الذى يهم :

هناك دائماً حل معروف لكل مشكلة بشرية – حل بارع ،
ومعقول ، وخطأ

هـ. ل. منكن ، «التحيزات» (السلسلة الثانية)

سيكون أمراً مطمئنا لو أننا كنا وصلنا إلى نهاية قصتنا وقد أمكننا أن نذكر شيئاً فيه ما يقرب من الاتجاه للقول بأننا «نحن بالتالى نرى أنه ينتج عن اكتشافاتنا أن الحشرات والسمك والزواحف ليست على كل حال من ذوات الإحساسية – فهى مجرد أوتوماتات»(*) – أما البرمائيات والطيور والثدييات فهى من ذوات الإحساسية أو

(*) الأوتوماتات آلات مصممة لمحاكاة وتقليد أعمال الكائنات الحية . (المترجم) .

الوعى مثلنا تماماً ! ومما يجدر بالتسجيل هنا ، أن الجنين البشرى يصبح من ذو الإحساسية عندما يصل إلى ما بين «خمسة عشر إلى ستة عشر أسبوعاً» . وهذا فيه حل معقول أنيق لبعض مشاكلنا الإنسانية عند اتخاذ قرار أخلاقى ، وهو هكذا حل فيه راحة عضيمة لنا ، ولكننا لا نستطيع بعد أن نحكى قصة من هذا النوع ، ولا يوجد سبب يجعلنا نعتقد أن فرصة كهذه سوف تتكشف لنا فيما بعد . وليس من المحتمل أن نكون قد غفلنا تماماً عن النظر إلى معلم عقلى هو الذى يكون فيه كل الفارق فيما يتعلق بالأخلاقيات ، وفيما يبدو فإن المعالم التى تفحصناها يكون أسلوب ظهورها ليس فحسب تدريجيا وإنما يكون أيضاً بأسلوب فيه عدم تزامن وعدم اتساق وعدم تجانس سواء بالنسبة لما يحدث فى تاريخ التطور أو كذلك فى تنامى الكائنات الحية الفردية . وبالطبع فإن من «المحتمل» أن إجراء المزيد من الأبحاث سيكشف عن منظومة من التشابهات والاختلافات التى لم يتم الكشف عنها حتى الآن ، منظومة سوف تثير فينا الانطباع الملائم ، ومن المحتمل أننا بعدها سوف نتمكن من أن نعرف لأول مرة أين رسمت الطبيعة حدها الفاصل وما هو سبب ذلك . على أن كل هذا ليس بالاحتمال الذى يمكن الاعتماد عليه ، إذا كنا لا نستطيع حتى أن نتخيل ما قد يكونه هذا الاكتشاف ، أو السبب فى أنه سوف يستلفت نظرنا من حيث ما له من علاقة بالأخلاقيات . (ولعلنا بمثل ذلك يمكننا أيضاً أن نتصور أنه ذات يوم صحو ستنشق السحب عن أحد الملائكة ليخبرنا مباشرة عن أى الكائنات يمكننا تضمينها داخل الدائرة السحرية وأيها نستبعدها عنها) .

لقد أجرينا مسحاً لأنواع العقول (والعقول البدائية) لم يكن فيه فيما يبدو أى عتبة فاصلة أو كتلة حرجة واضحة – حتى وصلنا إلى نوع الوعى الذى نتمتع به نحن البشر الذين يستخدمون اللغة . وهذا نوع من العقل جد فريد ، وهو يزيد قوة بمراتب لها قدرها عن أى نوع آخر من العقول ، ولكننا فيما يحتمل لا نود أن نضفى عليه ثقلاً أخلاقياً بأكثر مما ينبغى . ويمكننا تماماً أن نعتقد أن القدرة على المعاناة تساوى فى أى حساب أخلاقى ما هو أكثر من القدرة على الاستدلال العويص المعقد بشأن المستقبل (أو أى شيء آخر تحت الشمس) . ما هى إذن العلاقة بين الألم والمعاناة والوعى ؟

التمييز بين الألم والمعاناة هو مثل معظم التمييزات غير العلمية فى الحياة اليومية أمر غير واضح نوعاً وعند التخوم ، ومع ذلك فإنه يعد علامة مهمة مُرضية لنا حدسياً أو هو معيار له أهميته الأخلاقية . وظاهرة الألم ليست متجانسة عبر كل الأنواع كما أنها أيضاً ليست بالظاهرة البسيطة . ويمكننا أن نرى ذلك فى أنفسنا ، بأن نلاحظ كيف ستكون الإجابات عن بعض الأسئلة البسيطة فى هذا الشأن إجابات

غير واضحة . هل تكون عوامل التنبيه الآتية مما لدينا من مستقبلات الألم – عوامل التنبيه التى تمنعنا من أن نسمح لأطرافنا باتخاذ أوضاع خرقاء أثناء نومنا بما يؤدى إلى تلف المفاصل – هل هذه العوامل مما نخبره كآلام ؟ أو لعل من الممكن أن يكون الاسم الصحيح لها أنها آلام بلا وعى ؟ هل لها بأى حال مغزى أخلاقى ؟ وربما يمكننا أن نطلق على أحوال الجهاز العصبى هذه التى تحمى الجسد أنها حالات من «الإحساسية» بدون أن يتضمن ذلك أنها خبرات لأى نفس ، أو لأى أنا (ego)، أو لأى ذات . وحتى تكون لهذه الحالات أهميتها – سواء سميناها أو لم نسمها بأنها آلام أو حالات من الوعى ، أو خبرات – لابد من أن تكون هناك ذات تتحمل وتكون هذه الحالات «بالنسبة لها» مما يهمها لأنها مصدر للمعاناة .

هيا ننظر أمر ظاهرة «التفكك Dissociation» فى وجود الألم العظيم أو الخوف العظيم وهى ظاهرة تم تسجيلها على نطاق واسع . عندما تساء معاملة الأطفال ، فإنهم نمطيا يتخذون حيلة يائسة ولكنها فعالة . فهم «يرحلون» . إنهم على نحو ما يعلنون لأنفسهم أنهم ليسوا هم أنفسهم الذين يعانون من الألم . ويبدو أن هناك نوعين رئيسيين من المتفككين : أولئك الذين ببساطة يرفضون الألم كألم لهم هم ، ثم يشهدونه وكأنهم بعيدون عنه ، وأولئك الذين ينقسمون ، مؤقتاً على الأقل ، إلى شيء يماثل تعدد الشخصيات (لست «أنا» الذى أعانى هذا الألم ، إنها «هى» التى تعانى) . إن ما أفترضه بهذا الشأن ، وهو فرض ليس طريفا بالكلية ، أن هذين النوعين من الأطفال يختلفان من حيث الموافقة الضمنية على مبدأ فلسفى هو : كل خبرة لابد وأن تكون خبرة لذات ما . والأطفال الذين يرفضون هذا المبدأ لا يرون أى خطأ فى أن ينكروا الألم لا غير تاركين إياه بلا ذات ، هائماً فيما حوله بحيث لا يؤذى أى فرد بالذات . أما الأطفال الذين يعتنقون المبدأ فإن عليهم أن يبتكروا بديلاً يكون هو الذات – «أىّ فرد آخر إلا (أنا) !» .

وسواء كان يمكن أولاً يمكن مؤازرة هذا التفسير لظاهرة التفكك ، فإن معظم الأطباء النفسيين يتفقون على أنه يصلح للعمل إلى حد ما . بمعنى أنه أيا كان ما يتألف منه هذا العائق السيكولوجى أو التفكك ، فإنه مسكّن حقيقى – أو على نحو أدق فإنه سواء كان يقلل أو لا يقلل من «الألم» فإن من المؤكد أنه «يخمد من المعاناة» . وبالتالى فإن لدينا نتيجة متواضعة من نوع ردئ : إن الفارق بين الطفل غير المتفكك والطفل المتفكك ، أيا ما كان ، هو فارق يؤثر على نحو ملحوظ فى وجود المعاناة أو فى مقدار ما يوجد منها . (وأنا أسارع فأضيف أن أيا مما قلته لا يتضمن أن الأطفال عندما يتفككون فإنهم بذلك يخففون بأى حال من فظاعة السلوك الخسيس لمن يسيئون معاملتهم ؛ إلا أنهم بالفعل يقللون تقليلاً دراميّاً من هول التأثيرات

نفسها – وإن كان هؤلاء الأطفال قد يدفعون بعد ذلك فى حياتهم ثمنا باهظا بعواقب تفككهم) .

الطفل المتفكك لا يعانى بالقدر الذى يعانى به طفل غير متفكك . ولكن ما الذى ينبغى الآن أن نقوله عن الكائنات التى تكون متفككة «طبيعيا» – الكائنات التى لا تتوصل أبدًا ، أو حتى لا تحاول أبدًا أن تتوصل إلى هذا النوع من التنظيم الداخلى المعقد الذى يعد قاعدة قياسية فى الطفل السوى وينتهك فى الطفل المتفكك ؟ سنجد أن أحد الاستنتاجات المغرية هو كالتالى : إن مثل هذا الكائن هو بحكم تكوينه عاجز عن أن يكابد هذا «النوع» أو هذا «القدر» من المعاناة التى يمكن أن يكابده الإنسان السوى . ولكن لو أن كل الأنواع غير البشرية كانت فى هذه الحالة النسبية من التشوش ، سيكون لدينا أساس لافتراض أن الحيوانات غير البشرية قد تحس حقا بالألم ولكنها لا يمكنها المعاناة بالطريقة التى يمكننا بها ذلك.

كم يكون هذا مريحا للنفس ! إلا أننا يمكننا أن نتوقع أن محبى الحيوانات سيكون رد فعلهم لهذا الطرح هو سخط له ما يبرره ، مصحوبا بالشك العميق . وحيث أن هذا الطرح يعدنا بالفعل بأن يخفف الكثير من هواجسنا بشأن بعض الممارسات البشرية الشائعة ، بحيث يعفى صيادينا وفلاحينا ومن يجرون منا التجارب ، يعفيهم على الأقل من بعض عبء الإحساس بالذنب الذى قد يضعه الآخرون كوزر عليهم ، فإننا إذن ينبغى أن نكون حذرين بالذات وغير متحيزين عندما ننظر أمر أسس هذا الطرح . وينبغى أن نترقب فى حذر وجود أى مصادر للأوهام – مصادر يكون وجودها على أى من الجانبين بالنسبة لهذه القضية العاصفة . إن اقتراح أن الحيوانات غير البشرية ليست معرضة لمستويات المعاناة البشرية ، يثير نمطيا فيضا من حكايات توجع القلب – وسيكون معظمها عن الكلاب . لماذا يغلب الكلاب على هذه الحكايات ؟ هل يكون الأمر أن الكلاب تعطى أحسن أمثلة بالتقابل لأنها بالفعل لها قدرة على المعاناة أكبر من الثدييات الأخرى ؟ قد يكون الأمركذلك ، كما أن المنظور التطورى الذى ظللنا نتبعه يمكن أن يفسر السبب فى ذلك .

الكلاب ، والكلاب وحدها من بين سائر الأنواع المستأنسة ، تستجيب بقوة إلى القدر الهائل مما يمكن تسميه السلوك «المؤنسن» الذى يوجهه أصحاب الكلاب إليها. إننا نتحدث إلى كلابنا ، ونتعاطف معها ، وعموما نعاملها بقدر الإمكان كما نعامل رفيقا من البشر – ونحن نسعد باستجابتها الإيجابية والمألوفة لهذا المتودد . وقد نحاول هذا مع القطط ، ولكنها نادرا ما تبدو مستجيبة لذلك . ولا يدهشنا هذا الأمر عند التفكير فيه وراء ؛ فالكلاب الأليفة سلالة ثدييات اجتماعية ، اعتادت عبر ملايين السنين أن تعيش فى جماعات متعاونة تتفاعل معا بدرجة فائقة، بينما القطط

الأليفة قد نشأت من خطوط سلالة غير اجتماعية . وبالإضافة ، فإن الكلاب الأليفة تختلف اختلافا مهما عن أبناء عمومتها من الذئاب والثعالب والقيوط(*) ، وذلك من حيث استجابتها لتحبب الإنسان لها . ولا يوجد أى سر عن السبب فى أن هذا الأمر ينبغى أن يكون هكذا . فالكلاب الأليفة قد تم انتخابها بالضبط بسبب هذه الفوارق طيلة مئات الآلاف من الأجيال . وقد وضّح شارلز داورين فى كتابه «أصل الأنواع» أنه فى حين أن تدخل الإنسان المتعمد فى تكاثر الأنواع المستأنسة قد ظل يعمل لآلاف عديدة من السنين لتربية جياد أسرع وغنم ذات صوف أغزر وماشية لحيمة أكثر، وهلم جرا ، إلا أن قوة أخرى أكثر رهافة ، وإن كانت مع ذلك مفعمة بالفاعلية ، ظلت تعمل لزمن أطول كثيراً فى تشكيل أنواع حيواناتنا المستأنسة . وقد سماها داروين الانتخاب بلا وعى . وهكذا انشغل أجدادنا بالتربية الانتخابية ، ولكنهم لم يكونوا يفكرون فى أنهم يفعلون ذلك . وهذه المحاباتية اللاواعية التى استمرت عبر الدهور قد جعلت كلابنا تزداد وتزداد شبها بنا بطرائق تروق لنا . فهناك صفة من بين العديد من الصفات الأخرى ظللنا نعمل على انتخابها بلا وعى هى فيما أطرح صفة القابلية للتشارك الاجتماعى مع البشر ، وهى صفة لها فى الكلاب الكثير من التأثيرات التنظيمية التى يؤثر بها التشارك الاجتماعى البشرى أيضا فى أطفال البشر . ونحن عندما نعامل الكلاب كما لو كانوا بشراً ، فإننا فى الواقع ننجح فى جعلهم أكثر بشرية مما سيكونون عليه بدون ذلك . فهم يأخذون فى إنماء نفس المعالم التنظيمية التى فيما عداهم تعد مجالاً فريداً خاصاً فقط بأفراد البشر المتشاركين اجتماعيا . وباختصار ، إذا كان الوعى البشرى – أى نوع الوعى الذى يعد الشرط الأساسى للمعاناة الجدية – هو كما ناديت به مؤكّدا ، إعادة بناء جذرية للمعمار الأفتراضى للمخ البشرى ، فإنه ينبغى أن يترتب على ذلك أن الحيوانات الوحيدة التى سيكون لها القدرة على حيازة أى شىء يشبه ولم من بعيد هذا التشكل من الوعى، ستكون الحيوانات التى يمكن أيضا أن يُفرض عليها بالتثقيف هذه الماكنية الافتراضية . ومن الواضح أن الكلاب هى أقرب الحيوانات لأن تفى بهذا الشرط .

وماذا عن الألم ؟ عندما يحدث أن أطأ أصبع قدمك ، مسبباً لك الألم لزمن قصير وإن كان ألماً أكيداً (ومن المؤكد أنه ألم بالوعى) ، فإننى لا أسبب لك إلا أدنى ضرر – بل أن هذا نمطيا يكون بلا ضرر على الإطلاق . فالألم هنا وإن كان شديداً، إلا أنه لا يبقى . إلا لفترة أقصر من أن تكون لها أهمية ، فأنا لم أسبب لقدمك أى ضرر على المدى الطويل . فكرة أنك «تعانى» لثانية أو لثانيتين هى خطأ مضحك فى تطبيق هذه النظرية المهمة ، وحتى لو سلمنا بأنى عندما سببت لك ألما لثوان معدودة

(*) القيوط ذئب صغير فى شمال أمريكا (المترجم) .

فإن هذا قد سبب لك ضيقا لثوان معدودة بل وحتى لدقائق أطول – خاصة لو أنك اعتقدت أنى فعلت ذلك متعمداً – حتى مع تسليمنا بهذا فإن الألم نفسه كخبرة قصيرة الزمن ذات علامة سالبة سيكون مغزاه الأخلاقى هنا متلاشيا . (على أنى لو دست على إصبع قدمك فقطعت بذلك إنشادك لأحد الألحان ، وبالتالى حطمت مستقبلك الأوبرالى ، فسيُعد هذا أمراً مختلفاً تماماً) .

هناك الكثير من المناقشات التى يبدو أنها تفترض (١) أن المعاناة والألم هما نفس الشيء ، بدرجات قياس مختلفة ؛ (٢) أن الألم كله هو «خبرة الألم» ؛ (٣) أن «مقدار المعاناة» يتم حسابه («من حيث المبدأ») بأن نجمع لا غير كل الآلام (التى يتحدد مدى هول كل منها بزمن بقائها مضروبا فى درجة شدتها) . وسنجد أن هذه الفروض عند النظر إليها بهدوء فى ضوء بارد نهاراً (وهذا عمل صعب فذ بالنسبة لبعض المتحزبين) ستكون مزاعم مضحكة لسخافتها . وقد يساعدنا فى فهم ذلك تمرين صغير : هب أنك بفضل «معجزة من الطب الحديث» يمكنك أن تفصل كل آلامك ومعاناتك عن السياقات التى حدثت فيها ، بحيث تؤجلها كلها إلى نهاية العام مثلاً حيث يمكنك أن تتحملها خلال أسبوع واحد فظيع تقضيه فى ألم مبرح لا ينقطع ، نوع من أجازة سلبية ، أو إذا كنا سنأخذ صيغة الفرض (٣) مأخذاً جدياً ، فإننا سنقايض مدة الألم بشدته ، بحيث أن يؤس إحدى السنوات يمكن أن يُحزم فى ضربة واحدة عنيفة من عذاب أليم يُكدَّس معا لمدة تكون مثلا لخمس دقائق . سنة بأكلمها ليس فيها أدنى مضايقة أو صداع ، فى مقابل الهبوط إلى الجحيم بدون أى مخدر ، ولكنه هبوط لزمن قصير وسوف يتم بعدها الخروج منه تماماً – هل سنوافق على صفقة كهذه ؟ أنا شخصياً سأوافق بكل تأكيد ، لو أننى آمنت بأن من المعقول أن يحدث ذلك . (نحن نفترض بالطبع أن هذه الفترة المرعبة لن تقتلنى أو تجعلنى مجنونا فى أعقابها – وإن كنت سأسعد تماماً لو أصابنى الجنون فقط أثناء ضربة العذاب العنيف نفسها !) والحقيقة أنى سأقبل هذه الصفة مسروراً حتى لو كانت تعنى أن تتضاعف كمية المعاناة الكلية «لمثلين» أو «أربعة أمثال» ، ما دام الأمر فحسب سينتهى كله فى خمس دقائق ولن يترك أى أوجه ضعف دائمة . وأنا أتوقع أن أى فرد سيكون سعيداً بإجراء صفقة كهذه ، ولكنها فى الواقع مما لا يعقل حدوثه . (فالأمر سيتضمن مثلاً أن المحسن الذى يوفر هذه الخدمة مجانا للجميع سوف يقوم ، بناء على هذا الفرض ، بأن يضاعف معاناة العالم بمثلين أو أربعة أمثال – وأن العالم سيحبه من أجل ذلك) .

ووجه الخطأ طبعاً فى هذا السيناريو أنك لا يمكنك أن تفصل الآلام والمعاناة عن سياقاتها بهذه الطريقة المتخيلة . إن الاستشراف والعواقب ، والتعرف على دلالات

مشروعات حياة المرء وما يُتوقع فيها ، كلها أمور لا يمكن وضعها جانباً على أنها «مجرد أمور إدراكية» تصاحب المعاناة . والأمر الذى يكون مروعا عند فقدانك لعملك أو ساقك أو سمعتك أو من هو عزيز لديك ، ليس المعاناة التى «يسببها» فيك هذ الحدث، وإنما المعاناة التى «يكونها» هذا الحدث . وإذا كان ما يشغلنا هو اكتشاف وتخفيف أمثلة للمعاناة غير معترف بها فى العالم ، فإن ما يلزمنا هو دراسة حياة الكائنات وليس أمخاخها . إن ما يحدث فى أمخاخها له بالطبع علاقة كبيرة بالأمر كمصدر غنى للبرهنة على ما يكون ما تفعله الكائنات ، وكيف تفعله ، ولكن ما تفعله هو فى النهاية أمر مرئى للملاحظ المتدرب ، تماماً مثلما تتم رؤية أنشطة النباتات ، أو جداول الجبال ، أو محركات الاحتراق الداخلى . وإذا فشلنا فى العثور على المعاناة فى حياة الكائنات التى يمكن لنا رؤيتها (بدراستها باتقان مستخدمين كل وسائل العلم) ، فسيكون لنا أن نبقى واثقين من أنه لا يوجد أى معاناة غير مرئية فى مكان ما من أمخاخها . وإذا وجدنا أى معاناة فسوف نتعرف عليها بدون صعوبة. فالأمر كله جد مألوف .

لقد بدأت هذا الكتاب بحشد من الأسئلة – ولما كان هذا كتاب لفيلسوف . فإنه ينتهى ، لا بالإجابات ، وإنما ينتهى كما آمل بنسخ معدلة من الأسئلة نفسها وهى على نحو أفضل . وعلى الأقل ، فإننا يمكننا ونحن فى استكشافنا المتطور لأنواع العقول المختلفة أن نرى بعض المسارات فنتبعها وبعض الشراك فنتجنبها .

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٢٦٣٥
ISBN: 977-281-226 -6

مطابع الدار الهندسية /القاهرة
تليفون / فاكس (٢٠٢) ٥٤٠٢٥٩٨